الوراء. ولا زالت سطوتها تمتد ودائرة نفوذها تتسع وتظلل بظلها الظليل الالوف والربوات ممن كانوا يخبطون في دياجي الظلمات ويرتطمون في اوحال الجهل فيجدون في ربوعها السعادة الحقيقيَّة والراحة ورغد العيش . نعم لا ينكر ان دول اوربا لا تزال تحشد الجيوش الجرارة وتكثر من آلات الحرب والقتال وتقيم القلاع وتبني المدرعات والجرائد تهددنا بقرب انتشاب نار الحرب واحتدام سعيرها واهراق دماء الملايين من الابرياء وحلول الخراب والدمار لكن العقلاء يجاهرون ويؤكدون بان قرننا الشيخ الجليل لا يسمح بحدوث شيء من هذا في ايامهِ الوجيزة بل ما برح يحاول نزع السلاح وتوطيد السلام ونشر لواء الاتفاق والاخاء بما بقي فيهِ من رمق الحياة ولنا الامل الوطيد بفوزهِ في سعيهِ الحميد فيأتي بعمل خطير لم يسبقهُ اليهِ غيرهُ ويخلد لهُ ذكرًا بين العصور لا تمحوهُ كرور الايام وتوالي الاعوام قبلما يودعنا الوداع الاخير

وكان بودي ان آتي قبل ختام هذه الخطبة بالشرح الوافي عما تم في هذا القطر من الارتقاء الظاهر والتقدم الباهر مدة قرننا هذا لكن ذلك اشهر من ان يذكر وهو ظاهر لكل ذي عينين ولا ينكرهُ الاَّ كل مكابر جحود ولنا عليهِ كل يوم الف شاهد واننا نسأل المولى الكريم ان لا ينتهي قرننا هذا حتى تكون بلادنا قد بلغت ما نتمنَّاهُ من الارتقاء انهُ على كل شيء قدير

علي باشا مبارك

ذكرنا في الجزء الماضي من المقتطف ترجمة المرحوم علي باشا مبارك من حين كان ولدًا يتعلم مبادئ القراءة والكتابة الى ان توفي المرحوم سعيد باشا سنة ١٢٧٩ للهجرة (١٨ يناير سنة ١٨٦٣) وقام بالامر بعدهُ حضرة الخديوي الاسبق اسمعيل باشا . فلما تولى مسند الحكومة المصريَّة عيَّن صاحب الترجمة لنظارة القناطر الخيرية ولم تكن تقفل الى ذلك العهد ظنًّا انها غير متينة فلا تحتمل ضغط الماء اذا أُقفلت . وكان النيل قد تحول اكثرهُ الى الفرع الغربي فقلت المياه التي تجري صيفًا في الترع الممتدة من الفرع الشرقي وقلت الاطيان التي تزرع صيفًا حول ذلك الفرع . وذاكرهُ الخديوي اسمعيل باشا في هذا الامر فاشار باقفال القناطر الغربيَّة لتحويل الماء الى الفرع الشرقي حاسبًا ان من ذلك نفعًا محققًا ولا يحسن ترك النفع المحقق خوفًا من الضرر الموهوم. فاستصوب الخديوي

رأيهُ وامر باقفال القناطر الغربيَّة " فصارت تقفل وحصل من ذلك ما لا مزيد عليهِ من المنافع العموميَّة " واخذت بعض الاقواس الغربيَّة القريبة من البر الغربي فأُحيطت بجسر من الخشب فنشأت حولها جزيرة من الرمل حفظتها ولم يكن خللها مانعاً من إقفالها كل سنة . ثم حفر رياح المنوفيَّة فانشأ قناطرهُ ومبانيهُ على ما هي عليهِ الآن

وعُين نائبًا عن الحكومة المصريَّة في المجلس المشكل لتقدير الاراضي الخاصة بشركة ترعة السويس فرسم الرسوم اللازمة لذلك وحُلت المسألة على احسن حال. ونال حينئذٍ رتبة المتياز والنشان المجيدي من الدرجة الثالثة ونيشان اوفيسيه لجيون دونور

وسنة ١٢٨٤ جُعل وكيلاً لديوان المدارس تحت رئاسة المرحوم شريف باشا ثم انتدبهُ الخديوي اسمعيل باشا للسفر الى باريس في مسألة ماليَّة فزار مدارسها واطلع على كتب التدريس وجداول الدروس ونال بعد عودتهِ رتبة ميرميران وأُحيلت الى عهدتهِ ادارة السكك الحديديَّة المصريَّة وادارة ديوان المدارس وديوان الاشغال العموميَّة ثم نظارة عموم الاوقاف فقام بهذه المهام كلها احسن قيام ووسع نطاق السكة الحديد وبنى لها المباني الكثيرة ونقل المدارس من العباسيَّة الى سراي درب الجماميز رفقاً بالتلامذة وجعل فيها ديوان الاوقاف وديوان الاشغال فسهل عليهِ القيام بها قال " وكانت كثرة اشغالي لا تشغلني عن الالتفات الى ما يتعلق باحوال التلامذة والمعلمين فكنت ادخل عندهم كل يوم بكرةً وعشيًّا عند غدوي من البيت ورواحي واعملت فكري في ما يحصل بهِ نشر المعارف وحسن التربية". ثم نظم المدارس الاهليَّة وانشأ مدارس مركزيَّة في بعض مدن القطر كاسيوط والمنيا وبني سويف وبنها وانشأ في القاهرة مكتب القربيَّة ومكتب الجماليَّة ومكتب باب الشعرية ومكتب البنات بالسيوفيَّة واصلح المكاتب القديمة واخذ جانبًا من نفقات هذه المدارس من اباء التلامذة والجانب الآخر من ريع الاوقاف الخيريَّة ومن اطيان الوادي بمديريَّة الشرقيَّة ومن بعض الاملاك التي آلت الى بيت المال قال "وكان القصد تعويد الناس على الانفاق على اولادهم بالتدريج حتى لا يبقى على الحكومة الاَّ ما يختص بالمدارس الخصوصيَّة كمدارس الهندسة والطب والادارة ونحوها " واما باقي المدارس فيكون الانفاق عليها من الاهالي ومن الاوقاف والاملاك المشار اليها

وقد طالما سمعنا صاحب الترجمة يتمنى ان يكون المدارس املاك موقوفة عليها يكفيها ريعها حتى لا تعتمد على ميزانيَّة الحكومة المعرَّضة للتغيير والتبديل بتغير الاحوال

وغنيٌّ عن البيان ان المدارس نجحت في ايام نظارتهِ وخرج منها جم غفير من

الشبان الذين تقلدوا المناصب الاميريَّة وانتفعوا ونفعوا . ثم انشأ مدرسة دار العلوم الشهيرة واختار طلبتها من الجامع الازهر ليستعدوا فيها للتعليم في المكاتب الاهليَّة . والمكتبة الخديويَّة التي جُمعت فيها الكتب المتفرقة في المساجد ودور الحكومة فنجت من ايدي الضياع وتطرُّق الاطماع . وهذان الاثران الجليلان اي مدرسة دار العلوم والكتبخانة الخديويَّة من اعظم آثار التقيد ولو لم يكن لهُ غيرهما لكفى كلٌّ منهما لتخليد ذكرهِ وايضاً فقد اعاد الاوقاف المدرسيَّة الى ما وُقفت عليهِ وهو تربية الصغار وبث التعليم والتهذيب " فحييت هذه المآثر بعد موتها وعادت ثمراتها بعد فَوْتها "

ثم صرف همهُ الى تنظيم القاهرة . والظاهر ان الخديوي اسمعيل باشا كان شديد الميل الى تنظيم المدن وانشاء القناطر وما ماثل من الاعمال الهندسيَّة فكثرت اشغال صاحب الترجمة جدًّا تنفيذاً للاوامر الخديويَّة ولا سيما في اعداد الاحتفال بفتح ترعة السويس وقد قام بذلك احسن قيام فقلدهُ الخديوي النشان المجيدي من الطبقة الاولى واهدى اليهِ امبراطور النمسا نشان الفران كوردون وامبراطور فرنسا نشان كوماندور وملك بروسيا نشان غران كوردون . ثم اختلف هو واسمعيل باشا صديق ناظر الماليَّة على ضم دخل السكة الحديد الى الماليَّة فنُصل عن ديوان السكة الحديد والمدارس والاشغال والاوقاف في قليل من الزمن ونسب فصلهُ الى وقيعة اسمعيل باشا صديق بهِ . وبعد شهرين من الزمان صدر الامر الخديوي بجعلهِ ناظرًا لديوان المكاتب الاهليَّة وأُمر برسم الرسوم اللازمة لتجديد المكاتب في مدن الارياف . ثم أُحيلت عليهِ نظارة الاوقاف وديوان الاشغال . وبعد قليل احيلت نظارة هذه الدواوين على دولتلو البرنس حسين باشا كامل نجل الخديوي فاقام صاحب الترجمة معهُ مستشارًا . ووُشي بهِ بعدئذٍ بان كتابهُ نخبة الفكر في تدبير نيل مصر مشتمل على ذم الحكومة الخديويَّة وتقبيح سياستها فنُصل عن خدمة الحكومة

وقد قصَّ علينا قصة هذا الكتاب مرارًا ولم نسمع ان وزيرًا من الوزراء كان يجزع من ملكهِ كما جزع صاحب الترجمة من الخديوي الاسبق على ما يعهد فيهِ من الشجاعة الادبية التي حملتهُ على تقرير الحقائق في ذلك الكتاب النفيس ولم يكن هذا الجزع خاصًّا بهِ بل كان شاملاً كل حاشية الخديوي حتى اقرب المقرَّبين اليهِ على ما رواهُ لنا صاحب الترجمة مرارًا . ومع ذلك تمكن بعد قليل من استرضاء الخديوي فانعم عليهِ بالنشان المجيدي وكان قد تقلب في مناصب شتى اكثرها متعلق بديوان الاشغال

وسنة ١٨٧٧ للميلاد تقرَّرت هيئة الحكومة المصريَّة على اسلوب جديد وانشئ مجلس النظار برئاسة دولتلو نوبار باشا (في ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨) وجُعل صاحب الترجمة ناظرًا للاوقاف والمعارف فاخذ يبذل الجهد في بناء المدارس الكبيرة كمدرسة طنطا ومدرسة المنصورة وتكثير المكاتب الصغيرة وإعداد ما يلزم من الكتب وسائر ادوات التعليم واعتنى بامر الاوقاف واصلح مدارسها

وفي ٢٦ من شهر يونيو سنة ١٨٧٩ صدر الامر السلطاني بفصل الخديوي اسمعيل باشا وتولية اكبر انجاله المغفور له توفيق باشا فصدر امرهُ الى دولتلو رياض باشا بتأليف نظارة يكون رئيسًا لها وناظرًا للداخليَّة فاختار صاحب الترجمة ناظرًا لديوان الاشغال

وقد زرنا القطر المصري في ذلك الحين وقابلنا صاحب الترجمة وذاكرناهُ في مواضيع شتى علميَّة وادبيَّة وكتبنا عن القطر حينئذٍ ما نصهُ

"ليس من ينكر ان كل بلادٍ ابقى الله في اهلها بقيَّة للنجاح والترقي ترتقي وتزهو اذا حافظت حكومتها على الاستقامة واعتمدت على العدل وقصدت خير الرعيَّة واخلصت الحب والخدمة للوطن . فاذا تدبَّر العاقل احوال مصر الجارية وقاس حاضرها بماضيها وقابل منهجها بمنهج غيرها من الممالك المرتقية ذرى النجاح والمجد او الهابطة في دركات الحطة والخسف فلا ريب انهُ يحكم لها برغد العيش وسعادة المستقبل ما دامت على هذا المنهج. وشواهدنا على صدق ذلك كثيرة نذكر منها خمسة تحققناها بانفسنا وهي

اولاً يقظ حكام مصر وشعورهم بما هو واجب عليهم للرعيَّة وتحققهم ان عزَّهم باعزاز وطنهم وذلهم باذلالهِ. فاسمع ما قالهُ سموُّ الخديوي توفيق الاول لما تشرفنا بالمثول بين يديهِ في هذه الاثناء " ما ذا يبقى للانسان غير الذكر الجميل في هذه الارض فكم قام قبلي ممن هم اسمى مني وادنى وماذا ابقوا غير ذكرهم. فانا ولاَّني الله رعاية هذه الامَّة فواجباتي السهر عليها وصون حقوقها وبذل الجهد في ما يزيد راحتها وثروتها ومعارفها فهي مني وانا منها وعزها عزي وذلها ذلي وانا متوكل عليهِ تعالى ان يحسن نفعي لوطني ويبقى لي الذكر الجميل عند رعيتي" الى غير ذلك من الاقوال التي حركت اعمق عواطفنا واثارت الدمع في اعيننا لما شفَّت عنهُ من المحبة الوطنيَّة وكرم الشيمة والحميَّة. ومثل ذلك كلام نظَّارها وعلمهم بواجباتهم وقربهم من الناس وحسبانهم الدعة زينة واستجلاب قلوب الرعيَّة فخرًا

والثاني الاساس الوطيد الذي اقيمت عليهِ ادارة مصر الآن فاننا لما سألنا وزيرها الاكبر صاحب الدولة رياض باشا عن المعارف هناك وما يؤمل لها من النجاح في

المستقبل اوضح لنا باجلى بيان المنهج الذي نهجتهُ حكومة مصر حتى تخلصت من ارتباكها والاساس الذي وضعتهُ لضبط ادارتها ونشر المعارف في بلادها ولا يسعنا بسط ذلك هنا ولكن من يتأمل في الاموال العظيمة التي قُطِعت هذه السنة لتنشيط المعارف عدا عن الاموال التي قُطِعت للاصلاحات المتعددة الانواع يبشر مصر بنجاح قريب

وثالثاً تخفيف كرب الفلاَّح الذي عليهِ جل اعتماد مصر كما لا يخفى. وهذا قد صار اشهر من ان يذكر . وممَّا يحسن سوقهُ هنا انا كنا مارين في شارع من شوارع طنطا فسمعنا رجلاً يدعو على حكومة مصر الآن بالويل والخراب لانهُ شاهد في ايامها مالم يخطر لهُ على بال وهو ان الفلاح صار يشفع عليهِ فلا يدفع لهُ ربًا في المئة عشرين مع انهُ كان قبلاً يتذلَّل لهُ حتى يأخذها باضعاف ذلك .ولارتفاع الضنك عن الفلاَّح صرت تراهُ يحسب نفسهُ من البشر فيجول في شوارع القاهرة مستنشقاً نسيم الحريَّة متمتعاً بما يحق للانسان ان يتمتَّع بهِ وهذا يستغربهُ اهل القاهرة انفسهم

ورابعاً عدم الانشقاق المذهبي بين اهلها فان اعجب ما يتعجب منهُ ابن هذه البلاد عند دخولهِ بلاد مصر عدم تحزُّب الناس التحزُّب الاعمى الذي يظن الجاهل أنهُ يخدم بهِ ربهُ وهو يتعدَّى وصاياهُ

وخامساً اعتماد مصر على الاجانب لقضاء ما كان يتعسر على اهلها قضاؤهُ وذلك وان كان يظهر لكثيرين مؤدِّياً الى خسارة مصر من وجوه شتى فهو لا يظهر كذلك لمن يعلم حقَّ العلم ان لا نصيب من مصر لغير اهل مصر وان للافرنج زمناً محدوداً يقضونهُ فيها ثم يخرجون من وظائفها كما دخلوها وهذا يشعر بهِ اقوى الافرنج في مصر صولةً واشدهم في التملُّك فيها رغبةً .قال لنا بعض اهل الدراية العالمين بتقلبات الاحوال منهم « الظاهر ان مصر بيد الافرنج والحق ان تيَّاراً خفيًّا يسلبهم الآن الصغائر وعما قليل يسلبهم الكبائر ايضاً وستكشف لكم الايام ذلك » انتهى نقلاً عن الجزء السادس الصادر في غرة اكتوبر سنة ١٨٨٠

وكان كما قال لنا ذلك السياسي فتوالت الحوادث وانتجت الثورة العرابيَّة. قال صاحب الترجمة في ذلك ما نصهُ بالحرف الواحد . " كانت جميع الاعمال قائمة على قدم السداد وكانت هيئة النظارة سائرة في الطريق الجادة ناشرة الوية العدل والتسوية بين القوي والضعيف والرفيع والوضيع فاستوجب ذلك اثارة الحقد في صدور ارباب الاغراض فتقولوا على هذه الهيئة وطعنوا فيها واختلط كثير منهم بضباط العسكريَّة فاوغروا صدورهم

والقوا في آذانهم انهم الاحق بتعديل القوانين والتصرف في الحكومة حيث انهم اهل الوطن واصحاب القوة وحسّنوا لهم ما صنع بعضهم من الثورة السابقة التي لم يعاقبوا عليها فتعصبوا وتمكن منهم الغرور وكان رئيسهم احمد عرابي احد امراء الالايات وقتئذٍ فاستمال سائرهم وعاقدهم على مضادة الحكومة وتقدم من رؤسائهم لمجلس النظار عرضحال يطلبون فيه تغيير ناظر الجهادية عثمان باشا رفقي وتشكيل مجلس نواب وغير ذلك مما يخرج عن حدود وظائفهم فانعقد لذلك مجلس النظار تحت رئاسة الجناب الخديوي الافخم وانحط الرأي على عقد مجلس من الاهلين وبعض امراء العسكرية للنظر في امرهم والحكم فيهم بما تقتضيه قوانين الجهادية وتعهد ناظر الجهادية بان لا ينجم عن ذلك خطر ولا ضرر فانعقد ذلك المجلس بقصر النيل وجلبوا اليه لمحاكمتهم فقام جمع من الضباط والعساكر وهجموا على قصر النيل واهانوا من بالمجلس واخذوا العرابي ومن معهُ بالقوة على حسب عهد كان بينهم فكان ذلك اول التظاهر بالعصيان والخروج عن طاعة الحكومة وشاعت هذه النازلة حتى وصل خبرها الى البلاد الاجنبية فجمع الخديوي الاعظم النظار واعيان الامراء وتفاوضوا في اطفاء هذه الفتنة فتقرر تغيير ناظر الجهادية واجابة العسكر الى مطلوبهم والاغضاء عما حصل منهم لما تبين من عدم وجود قوة تحت يد الحكومة ترد جماحهم فلم ينقطع الشر بذلك بل تمادوا على العصيان وحملهم الخوف على انفسهم على شدة النفور وعدم قبول النصيحة وطمعوا في ان يكونوا اصحاب الحل والعقد في الحكومة وتأكد التحالف بينهم حتى بلغ بهم الامر الى ان هجموا على سراي عابدين ووجهوا اليها المدافع وطلبوا سقوط هيئة النظارة وترتيب مجلس النواب وزيادة عدد الجند الى ثمانية عشر الف عسكري فحضر القناصل وأوصلوا الامر الى دولهم بواسطة التلغراف وبعد المخابرات اجيب العسكر الى مطلوبهم وغيرت هيئة النظارة وصدر الامر الخديوي الى المرحوم شريف باشا بتشكيل هيئة تحت رئاسته فشكلها وعقد مجلس النواب فشرع رجال المجلس في تقرير لائحته الاساسية وبعد قليل طلبوا ان يكون لهم الحق في ميزانية الحكومة بشرط عدم الخروج عن المعاهدات الدولية وقانون التصفية فلم يجبهم المرحوم شريف باشا الى ذلك فأصروا على الطلب وظاهرهم العسكر فاستعفى المرحوم شريف باشا وتغيرت هيئة النظارة وتشكلت هيئة جديدة تحت رئاسة محمود باشا البارودي ". ثم يتلو ذلك وصف الثورة العرابية الى ان دخلت الجنود الانكليزية مدينة القاهرة وتألفت النظارة برئاسة المرحوم شريف باشا سنة ١٨٨٣ فكان صاحب الترجمة ناظرًا لديوان الاشغال وعاد الى اصلاح

الري وتكثير المياه في الخطاطبة وادخل طريق المقاولات في المباني على الاطلاق وبلغ ما أُنفق على اعمال القاهرة وحدها تلك السنة خمسة وسبعين الف جنيه وبدأ ببناء دواوين الحكومة والسجون والمستشفيات لان الدواوين كانت الى ذلك العهد مبنيَّة بالطوب النيء او الدبش على غير نظام وكانت الحبوس حواصل مظلمة لا يدخلها النور الاَّ قليلاً وكان اصحاب الجرائم على اختلاف جرائمهم يخزنون فيها كالامتعة وداخلها يخنق بمجرد استنشاق هوائها... ولم يكن بالمديريات اسبتاليات داعية الى الصحة بل كان بعضها محل ورشة ونجوها واكثرها يتهدم والسليم منها كربط البهائم "

وفي اواخر سنة ١٨٨٣ استعفى المرحوم شريف باشا وتألفت نظارة جديدة برئاسة دولتلو نوبار باشا ولم يكن صاحب الترجمة فيها فبقيت الى اواسط سنة ١٨٨٨ فحينئذٍ صدر الامر الخديوي الى دولتلو رياض باشا بتأليف وزارة جديدة فجعل صاحب الترجمة ناظرًا للمعارف وبقي فيها الى ان استعفى دولتلو رياض باشا في الخامس عشر من شهر مايو سنة ١٨٩١ وتولى رئاسة النظار عطوفتلو مصطفى باشا فهمي . وسنجمل الكلام في الجزء التالي على ما فعلهُ صاحب الترجمة مدة توليهِ نظارة المعارف هذه النوبة وتمام عرفناهُ من امرهِ بالخُبر والخبر

مشاهد اوربا

١٣

مدافن باريس

لم اشأ ان اغادر باريس قبل ان اشاهد منازل سكانها الباقية حيث القوا عصا الترحال . وقالوا ان نحول عنها او تأول الدنيا الى الزوال . فسار بي الدليل الى مقبرة الاب لاشيز ومرَّ بي على سجن الجناة واراني المكان الذي يُقتل فيهِ من يحكم عليهِ بالقتل بنهم وقال انهُ يوم يراد انفاذ الحكم على احد تُضيق هذه الساحة والاماكن المحيطة بها بالناظرين حتى تؤجر النافذة بقدر كبير من المال . فقلت في نفسي لم يزل الطبع الوحشي في ابن آدم فيقتل ابناء نوعهِ ويسرُّ برؤيتهم يُقتلون . ولعلَّ ذلك باقٍ في نفسهِ بقاء الاعضاء الاثريَّة في جسدهِ وسيزول مع الزمان بارتقائهِ في سلَّم الفضائل . ثم بلغنا المقبرة وصعدنا فيها وهي في مرتفع من الارض يطل على المدينة وكأني سمعت سكانها يرددون قول ابي العلاء القائل